رواية "الطريق" بين الرمز والواقع

بقلم عبد العزيز عبد الفتاح محمود

في هذه الرواية الجديدة الرائعة لكاتبنا الكبير نجيب محفوظ جانبان يضعهما الباحث نصب عينيه منذ الوهلة الاولى التي ينتهي فيها من القراءة .. الجانب الاول : المحتوى الفلسفي لرؤيا الكاتب والدلالات الخطيرة التي ينتهي اليها . والجانب الثاني : مزج الرمز بالواقع في قدرة فائقه دون ان يفقد الكاتب سيطرته لحظة على التكنيك.

ويجدر بنا أن نقرر منذ البدء ان اسلوب الرواية فيه بساطة الشعر وشفافيته وعمقه .. لكنه مع ذلك اسلوب روائي اولا استطاع نجيب محفوظ أن يجعله موحيا رمزا ساحرا وغاصبا وعنيفا .

ورواية الطريق .. هي الطريق بين الحاضر والمستقبل .. هي الخروج من الماضي العفن الملوث الى العالم الفسيح حيث التطلع « بمعجزة الى الكرامة والحرية والسلام ».

ان اكتشاف الطريق هو اكتشاف حياتنا ذاتها من خلال الصراع الهائل في المجتمع الواحد .. ومن خلال الدوامة التي يدور فيها عالمنا اليوم .. ان انسان العصر الحديث قد ورث حياة مثقلة بالاحزان والهموم .. بالحب والعطف .. بالمسئولية واللامبالاة في آن واحد ، وحضارة القرن العشرين حضارة معقدة لا يسهل على المرء ان يحيا في كنفها دون ان يفقد الاتجاه . وعليه ان يضع قدمه على نقطة ارتكاز ليحدد مكانه ويكتشف ذاته وذوات الاخرين .. فالانسان المعاصر مشدود الى ماضيه ، وهو في تطلعه الى القمة مرتبط ابدا بالسفح .. وهو في نضاله الطويل يشده المصير المجهول .. لا بد من الحرية لكي تتوفر لنا الكرامة .. ولا بد من الكرامة لكي يتحقق لنا السلام .. لكن من أين يأتي السلام ؟! .. ان عالمنا ملفع بالجنس والعدم والجريمة وهي قيود تعوق مسيرنا نحو الحرية والكرامة والسلام .

ان الوصول الى سير سيد الرعيمي هو الوصول الى عالمنا الضائع .. عالمنا الذي نفتقده ونناضل من اجله .

لقد اكتشفت « بسيمة عمران » ذاتها فجأة في الطريق من السجن الى القبر والقت بكل اسرارها الى « صابر » ابنها الوحيد وعليه ان يمضي في طريق اخر غير طريق امه . لقد هدته الى الطريق الصعب حينما اخبرته أن اباه ما زال حيا .. لم يمت كما قالت له من قبل . انها لا تعرف عنه شيئا منذ ثلاثين عاما .. منذ هجرته وهربت الى الاسكندرية . عليه ان يمضي في كبرياء والا يهتم بكلام الناس ، وان يلوي قبضته القوية التي يلوح بها « فتخرس الالسنة المتوثبة للنيل منه ومن امه » .. انها اشرف من امهاتهم جميعا « فهم مهرة في خداع الناس بمظاهرهم ، الوجيه فلان ، المدير فلان ، الخواجا فلان ، سيارات وملابس وسيجار ، كلمات حلوة، روائح زكية ، لكنني اعرفهم على حقيقتهم ... اعرفهم في حجرات النوم وهم مجردون من كل شيء الا العيوب والفضائح » .

وكانت نقطة الارتكاز بالنسبة لصابر هي الانفصال عن امه .. هذا الانفصال الذي فرضه الموت بوجهه الكالح . ليترك حياة الليل والدعة والفراغ والمال والصعلكة الى حياة المشقة والبحث . لكن الطريق الموحشة المعطرة تسلمه الى طرق موحشة مليئة بالاسرار والالغاز والاحلام واليأس . فحياته في « النبي دانيال » بالاسكندرية والبحر وبنات الليل والفرائز المشبوبة لم تنفصل عنه وهو تائه في القاهرة يبحث عن ابيه في اعلان الصحيفة اليومية او وجه الشحاذ العجوز الذي يقابله كلما نزل من الفندق كالقدر المكتوب ، او رنين التليفون الذي يوحي بالرجاء مجرد أيحاء .. او احلامه المزعجة عن ابيه التي ما تلبث ان تصدمه اليقظة بالواقع .. او وجه « الهام » الملائكي وجسد « كريمة » الذي يلسعه بالرغبة كل ليلة . اين حقيقته وسط هذه الدوامة ؟ اين صابر الانسان الطموح الى المستقبل ؟ اين صابر الادمي الذي يحس بالحياة الجديدة لكنها تفر من بين يديه كحسناء لعوب لا تمكنه من نفسها ؟ .. هل هو « سيزيف » القرن العشرين ؟ ام مجرد فرد مغمور .. رقم يعيش وسط ملايين الارقام المعلقة في لوحة خالدة ؟ . ربما لا يستطيع ان يجيب على هذه التساؤلات فهو موزع النفس بين الهام وكريمة .. هو مزدوج الشخصية الى أبعد حد . الهام بالنسبة اليه تمثل المستقبل ، حياة الاستقرار والحرية والكرامة والسلام .. وكريمة بالنسبة اليه تمثل الماضي البشع وحياة القلق والعدم والجنس والجريمة . في محل « فتركوان » يتناول مع الهام شطائر الفطير واكواب العصير ويتكلم في الحب والاستقرار والمستقبل ، ويعيش في ضوء النهار . وفي حجرته بفندق القاهرة تتسلل اليه كريمة خلسة بعد ان ينام زوجها العجوز « عم خليل » صاحب الفندق فتشعل فيه الرغبة وتبعث بين جنبيه العنف ، وتملأ خياشيمه باللذة والعتمة والجريمة . وفي سبيل الوصول الى الهام او كريمة يكاد ينسى هدفه الاول وغايته الكبرى .. يكاد ينسى اباه الضائع وعالمه المفقود . نعم فنحن تلهينا غاياتنا الصغيرة عن اهدافنا الكبيرة .. وتحولنا مسالك الطريق عن الوصول الى نهاية المطاف . ان المال المحدود الذي تبقى من ثمن شقته في الاسكندرية يكاد ينفد ولم يعثر صابر على ابيه .. لم يستطع ان يهديه اليه العراف ولا الاعلان في جريدة « ابي الهول » .. فلينفذ خطة « كريمة » . ان عم خليل العجوز ربما يعيش عشرين عاما ولديه المال والفندق والمرة البضة ولا شأيء غير ذلك . لماذا لا يحتويه القبر الان بعد هذا العمر الطويل ؟ ماذا يريد بعد ذلك من الدنيا ؟ ليترك لغيره مكانه فهو اقدر على الانفاق واشباع رغبة الزوجة . ان لديه الامل والهدف بينما عم خليل لا امل له ولا هدف. فليضربه بالة حادة ويتزوج كريمة . وبالرغم من حب الهام له فلا امل للزواج منها . هي مثقفة وموظفة في جريدة «أبي الهول » وهو جاهل وعاطل . لم يبق غير كريمة بنت الليل والانفوش والبحر .. وعم خليل ليس سوى عقبة صغيرة يسهل التخلص منها .. ويفتح ذات ليلة باب مخدع عم خليل . الليل والسكون لا يبددهما سوى صوت الشحاذ العجوز في الشارع . وتجحظ عينا عم خليل على ضوء اللمبة الجاز بينما تهوي الالة الحادة في يد صابر على جبهته بضربة قاضية .. وينفلت من الشباك ويهرول الى النيل ليخفي اداة الجريمة بينما كل شيء يشير اليه في احمرار بلون الدم .. السماء وصفحة النهر والشوارع الخالية وجسد الشحاذ العجوز ووجه ابيه الضائع المجهول . وفي الصباح تكتشف الجريمة ، ويدخل « علي سريقوس » خادم الفندق السجن تحت التحقيق .. هو الذي لم يرتكب جريمة ولم يفعل شيئا .. لكن هل تضيع معالم الجريمة بكل هذه السلهولة ؟ . ان « محمد الساوي » يشير في صابر الغيرة والعنف .. لقد لاحظ العجوز نظرات صابر الجائعة نحو كريمة ، كذلك لاحظ من قبل تسلل زوجها السابق الى الفندق في حياة زوجها الاخير القتيل . لقد خانت كريمة زوجها كثيرا .. والقى بالحقيقة في وجه

صابر .. اشعل فيه الغيرة والعنف .. حتى ان يصبح زوجا لكريمة بعد ان ارتكب الجريمة اصبح املا ضائعا تماما مثل ابيه الضائع من ثلاثين عاما . « لكن الجنون كان يعصف به عصفا .. اجل كان الجنون يعصف به عصفا » ... « لن اسمح لقوة في الارض بأن تجعل مني ابله . ستجدينني قريبا فوق رأسك ضربة قاضية .. اعملي ما تشائين .. خوني او تزوجي ، فان حبل المشنقة في يدي ، لا تتوهمي ان حياتي اغلى من كبريائي » .

لقد نسي صابر في هذه اللحظة قضيته الاولى واصبحت قضيته الثانية تستولي على كل اهتمامه .. لا بد ان يذهب الى الزيتون فربما كانت تضاجع الان رجلا اخر .. لا بد ان يواجهها بالحقيقة كما القى بها في وجهه محمد الساوي العجوز . وخرج قاصدا الزيتون مقتنعا انه ضلل المخبر المرابط امام الفندق .. ويجد نفسه امامها وجها لوجه .. وتأتي النهاية :

ـ « صدقني .. انا احبك .. لم ادبر شيئا الا من اجلك .. صدقني

ـ حطمت حياتي بكذبة لتفوزي انت وعشيقك بالثروة والحياة .

ـ صدقني قبل فوات الاوان .. انت حبيبي .. ولا احد غيرك .. خرج الرجل من حياتي من زمان

ـ دبرت قسمة جهنمية ، فلي الجريمة ، ولك الرجل والثروة .

ـ لا فائدة انتهينا ، اللعنة ، رأسك كالحجر ، كلمة اخيرة .. الا تريد ان تصدقني ؟

ـ كلا ..

ـ اذن ماذا تريد ؟!

ـ ان اقتلك ..

ـ ثم تشنق ؟!

ـ في الف داهية .

ودوى طرق على الباب كالقنابل ، وطوقت البيت أصوات مهددة ، واقدام ثقيلة ، وصرخت كريمة ببأس : جاء البوليس ، الم اقل لك . انقض عليها كالمجنون وقبض على عنقها بيدين عصبيتين ثم ضغط بكل قواه على حين اهتز الجو من زلزلة دفع الباب » .

وهكذا يسقط صابر في منتصف الطريق .. دون ان يحسم قضيته الاساسية . لقد سقطت من قبل « بسيمة عمران » وخرجت من السجن لتعري الحقيقة كما عرت جسدها ثم تلفظ انفاسها الاخيرة .. وضاع سيد سيد الرحيمي منذ ثلاثين عاما واصبح لا يدل عليه سوى صور الزفاف .. وها هو صابر يواجه الموت وحبل المشنقة يداعب عينيه ، وحان موعد الالتفاف حول عنقه . ان اسرة الرحيمي تقع في الموت والضياع وهي تبحث عن الحياة والاستقرار .. الموت والحياة هما وجها القضية ، وهما المحور الفلسفي لادب نجيب محفوظ الان كما كان محور ادب الروائيين الكبار في كل العصور منذ عصر الميثولوجيا والميتافيزيقيا حتى عصر العلم والتجريد والقنبلة الذرية رغم اختلاف الرؤية والاسلوب والتكنيك . ان نجيب محفوظ يعري القرن العشرين تعرية تامة ، فلم نوفر لانفسنا الطمانينة بعد ، ولم يوفر قرننا العشرون السلام بعد ، ولم يوفر العيش الكريم والسعادة بعد ، ان الجدران ما زالت امامنا : الحروب والكوارث .. الحقد والعنف .. القيم مهزوزة ولا بد من قيم جديدة .. التغير موجود لكنه لم يخف وجه الشخاذ ولا قبضة البلطجي .. وسيد الرحيمي لا يستقر في مكان ابدا .. هو موزع بين قارات العالم .. وجهه الجميل لا نعرفه الا من خلال صوت على ورق .. « خصاله هي خصالي ولكن بينما يلهو هو فوق الكرة الزوي انا في السجن منتظرا حبل المشنقة » . هكذا يؤكد صابر لمحاميه وهو تأييد مبعثه التناقض الواضح لكثير من زوايا حياتنا في عصرنا الراهن ..

ـ « صاحبك الضرير لا يعرف كل شيء .

ـ هو على اي حال مليونير .

ـ الاهم من ذلك ان قوانين الدولة لا تهدده .

ـ لكنك كنت تعلم انك فقير وخاضع لقوانين الدولة » .

ومع كل التناقض الموجود في العالم لا بد من النضال والبحث . فالطريق طويلة وشاقة ولا بد من السير حتى تدمى الاقدام او يواجهنا المصير . ربما نجد فرصة للامل حتى ولو كنا نواجه الموت .. والانسانية ما زالت تسير بالرغم من كل شيء : الحرب .. والجلادون .. وارتفاع الاسعار .. والضعفاء وعشاق الدعارة في الليل .. والشحاذون .. وربما يصدمنا الواقع بمرارته لكنه واقعنا على اية حال ولا بد من العيش فيه رغم القسوة والمرارة .. وهي دلالة خطيرة لعمل ادبي خطير .

ونختم هذه الدراسة الصغيرة المتواضعة بكلمة لويس عوض في الاهرام : « واليوم يقدم لنا نجيب محفوظ في قصته الكبيرة «الطريق» مرحلة جديدة ووجها جديدا في هذا الادب العظيم .. ادب بحث الانسان عن المجهول العظيم ، ان اخذناها مأخذ الواقع عشنا مأساة الانسان في الواقع ، وان اخذناها مأخذ الرمز طاردنا معه اسرار المجهول حتى حافة الاكمة » .

القاهرة

عبد العزيز عبد الفتاح محمود

صدر حديثا

عاشق من افريقيا

مجموعة شعرية جديدة يعود بها الشاعر المبدع

محمد الفيتوري

الى قرائه الكثيرين بعد غياب بضعة اعوام

نكهة جديدة في اسلوب متطور

الثمن ليرتان لبنانيتان

منشورات دار الاداب